

الفصل الثالث

زارادشت

شخصية تخفت في أسطورة :

لم يكن ملك الفرس الذي أظهر هذا التسامح الديني لعقائد الشعوب الخاضعة له ، لم يكن رسمياً إلا « زارادشتياً » ومن المحتمل أن حكماء الشرق الثلاثة الذين وجاءوا ، طبقاً لرواية الإنجيل ، إلى أورشليم قائلين : « أين هو المولود ملك اليهود ؟ فإننا رأينا نجمة في المشرق وأتينا لنسجد له » (١) ، من المحتمل أن كانوا كهنة يعتنقون نفس العقيدة . فمن كان زارادشت ؟

وكما هو الحال مع كافة العقائد الأخرى ، هناك مدرسة واحدة من المدارس الفكرية تنادى بأنه لم يكن له وجود على الإطلاق . ولاشك أن ما نعرفه عن حياته أقل مما نعرفه عن مؤسس أى مذهب آخر تقريباً ، برغم أن الأساطير حول مولده ، نشأته وأحاديثه مع الإله ، أساطير كثيرة. والعلماء المحدثون ، وهم لا يقلون حماسة عن زملائهم القدامى ، فضلاً عن المؤرخين ، مختلفون بالمثل حول تاريخ مولده . وأقدم تاريخ ذكر هو سنة ٦٠٠٠ ق. م . ولستنا في حاجة لأن نفترض لبرهنة أنه عاش في وقت مبكر مثل هذا الوقت . والتبشير بإنجيل يسبق أقدم ملوك عرفوا في مصر بثلاثة آلاف سنة ، في الوقت الذي لم تكن غالبية العالم فيه تحطت العصر البرونزي ، قد يكون تبشيراً بنوع من الفراغ التاريخي (وليس هناك من مبرر يستوجب أن يعيش الحكماء في وقت أكثر تبكيراً ، بل إنه أمر بعيد الاحتمال أن تكون لدينا الرغبة في معرفة ما قالوه) . وقد تمسك بيروسوس Berosus المؤرخ البابلي الذي عاش في القرن الرابع ق. م . بالرأى القائل بأن « زارادشت » قد ولد حوالي سنة ٢٠٠٠ ق. م ، ولو أننا لستنا على يقين تام على الإطلاق بالتواريخ التي ذكرها المؤرخون الأولون ، حتى هيروdot العظيم ، إذ على أى أساس كانوا يحسبون الزمن . ربما كانت هذه التواريخ صحيحة حتى بالنسبة لعلماء في الرياضيات ، علماء أصليين ومجتهدين مثل العلماء البابليين . ويميل العلماء اليوم إلى الاعتقاد

(١) إنجيل متى ، الأصحاح الثاني ، آية ١ (المترجم) .

بأن « زرادشت » لم يولد قبل سنة ٦٦٠ ق. م. وهو تاريخ يقربه بضع سنوات من ميلاد بعض أعظم مفكرى العالم :

وفي الوقت الذى نجد فيه أساليب تحقيق أحداث معينة فى حيات شخصيات مثل « أختانتون » و« إبراهيم عليه السلام » و« بوذا » و« المسيح » ، فإننا لا نعلم بمثل هذه التيسيرات فى حالة « زرادشت » ، إذ ليست هناك أحداث معروفة أو مصدقة ، للتحقق منها ، ذلك أن حياة « زرادشت » متخفية فى نسيج أسطورة خيالية جداً وغير معقولة جداً فى نظر عقول الغربيين ، حتى أنه يبدو لأول وهلة أنه لا ينتمى إلى طراز الكائنات البشرية بل إلى طراز الأبطال الأسطوريين . ولكننا يجب ألا نتسرع فى استدلالنا ، فلتنعمن أولاً فى القصص العجيبة المرتبطة بمولده ، ومثل هذه القصص تبدو بلا تغيير أنها تربط نفسها بالزعماء الدينيين ، وأيضاً بمن يتطلع إليهم بشيء يكاد يشبه الرهبة الدينية - مثل « أفلاطون » لأن العالم يأبى أن يسمح لرجال ذوى شخصيات بارزة أن يولدوا بنفس الطريقة التى ولدت بها الكائنات البشرية العادية . هذه الأساطير لا تبرهن على أن إنساناً ما لم يكن له وجود ولكنها فى الوقت الذى تبرهن فيه بكل تأكيد على عكس ذلك ، فإن وجودها وبقائها قد يكونان تعليلاً كما قلنا ، لوجود بعض شخصيات بارزة للثناء عليها . والرواية الشفوية ليست بالضرورة أقل سنداً من التسجيل المدون . واليوم ، مع اعتمادنا على الوثائق المدونة ، نقلل من قدر قوة الاتصال عن طريق الكلمة المنقولة بالفم ، وهو الأسلوب الذى ربما خدم البشرية أكثر من الكتابة ، بألف مرة . ويمكننا أن ندعى ، ولنا عذرنا ، أنه كلما كان هناك دخان أسطورى فلا بد أن تكون هناك شرارة على الأقل من نار حقيقية .

واسم « زرادشت » (Zoroaster (Zoroastres) هو الترجمة الإغريقية لـ « زاراثوسترا Zarathustra » الذى ضمنه نيتشه Nietzsche فى مسرحيته الشعرية المشهورة : « كذلك قال زاراثوسترا Also Sprach Zarathustra » . وقد ولد « زرادشت » فى بلاد فارس ، ومن العسير تماماً أن نستوضح من « النصوص البهلوية Pahlavi Texts » التفاصيل الصحيحة لمولده ، نظراً لأن الحديث عادة ما يسير على شاكلة نوع من الحديث المقدس . إننا نستخلص أن بعض رؤساء الملائكة « تجمّعوا فوق جذع نبات الهوم Hom (أو الهاوما Haoma) وهو نبات فى ارتفاع قامته الإنسان ، رائع فى لونه ، ممتلئ بالعصارة وهو طازج » ، وهو النبات الذى اختار ملاك « زرادشت » الحارس الولوج فيه . وبعد ذلك اقتيدت إلى شجرة النبات

المذكور ست بقرات بيضاء ، اثنتان منها ، برغم أنها كانتا بكرا ، صارتا حلويتين ، إذ أكلت هاتان البقرتان من نبات « الهاووما » ، وبذا « انتقلت طبيعة » زاراتوسترا « من ذلك النبات إلى هاتين البقرتين واختلطت بلبن البقر. » ، وبعد ذلك أغرى كاهن يدعى « بوروشاسبو Porushaspo » فتاة من أصل نبيل تدعى « داكدوب Dukdaub » لتحلب البقر ، وفي أثناء ذلك سحق « بوروشاسبو » نبات « الهاووما » ومزجه بلبن البقر ، وشرب هو والفتاة مسحوق نبات الهوم ممزوجاً باللبن حتى آخر قطرة « ، عندئذ امتزجا معاً وأبأ « أهورامازدا Ahura Mazda » بذلك ، وهنا حدث اتحاد المجد ، إذ اتحد الروح الحارس والطبيعة الجسدية لزاراتوسترا في صورة صبي ذكر ، ولكن بالرغم من ذلك ، فقد بذلت الأرواح الشريرة كل جهدها لتعوق الحمل الطبيعي للطفل في رحم أمه ، ولكنها (أى الأم) تضرعت إلى « أهورا مازدا » فصارت في أحسن حال . وفي اليوم الذي ولد فيه « زاراتوسترا » غمر قرية « بوروشاسبو » نوع من الضياء المقدس ، واندلعت النار في كل فجوة ، بيد أن أعظم معجزة له هو أنه ما كاد يولد حتى انخرط في الضحك ، فإذا بالقابلات السبع اللاتي جلسن حوله يتملكهن الفزع ، وقالت هؤلاء النسوة الفزعيات : « ماهذا ، هل سببه العظمة أم السخرية ، ما هو ذلك الأمر الذي جعل الصبي يضحك على الفور عند ولادته ، مثلاً يفعل شخص له قدرة ويكون مرد سروره إلى نشاطه ؟ » ولكن بوروشاسبو أجاب بفخر : « لفوا هذا الرجل الصبي في ملابس صنعت من وبر الغنم الناعم . لقد كان مولده يرجع إليك ، يرجع إلى فضيلتك. أنت « يا « داكدوب » . لقد استبان بوضوح قدوم المجد وحلول الضياء على هذا الفتى عندما ضحك على الفور عند ولادته . » .

ولم تكن الأحداث التي أعقبت ميلاد « زارادشت Zoroaster » تعد شيئاً بالقياس إلى المحن والمغامرات التي أحدثت بطفولته . لقد حاولت الشياطين والأرواح الشريرة ، بكافة الوسائل أن تحطمه ، لقد حاولت أن تحرقه بأن لجأت إلى مربية لتتولى هذه المهمة نيابة عنهم ، بأن ترميه تحت خيول راكضة ، أو تحرقه حتى الموت بأن تضعه على كوم من حطب محترق ، أو بأن تتركه للذئاب لتمسك به وتلتهمه . وفي كل حالة كان ينقذ دون أن يصاب بأذى . وفي الحالة الأخيرة كان مرد إنقاذه إلى حقيقة أن « فوهيومانو Vohumano » و « سروش Srosh » الورعين ، جاءا بشاة كثيف وبرها ومملئاً ضرعها باللبن ، جاءا بها إلى الحظيرة فدرت لبناً له « زاراتوسترا » في جرعات سهل هضمها حتى بزغ ضوء النهار .

وعندما كان طفلاً صغيراً جداً ، قيل عنه بالمثل ، إنه كان « يطيل التطلع وهو ينظر إلى أعلى وإلى أسفل وفي مختلف الجوانب حوله . » (٢) ولما كان يسأل عما كان يفعله ، كان يجيب بأنه كان يرى رؤى المباركين يصعدون إلى السماء والأشراق وهو يهبطون إلى الجحيم ، وقد تنبأ في الوقت نفسه بانتشار إنجيل جديد في بقاع الأرض .

الرسالة المقدسة :

وعلى شاكلة « يسوع Jesus » ، بدأ « زارادشت » رسالته في سن الثلاثين تقريباً . لقد استهلت هذه الرسالة بنوع من الفحص الروحي قامت به الروح الطيبة « فوهومانو Vohumano » . ولما تحدى الناس « زارادشت » يوماً ما متسائلين : « ما أول شيء يثيرهم ، وعن أي شيء كان أول سعي له ، وماذا كان اتجاه رغبته » أجاب الشاب : « إنني أعتبر أكبرهمي الصلاح ، وأول مسعى الصلاح وما تنجبه إليه رغبتي الصلاح » . ولما سمح له في الوقت المناسب بمصاحبة الأرواح ، كان في استطاعة « زارادشت » أن يوجه أسئلة إلى « أهورا مازدا » نفسه ، فلقد تساءل : « في عالم التجسيد ، ماهو الشيء الأول في الكمال ، وأيها الثاني وأيها الثالث؟ » فرد عليه « أهورا مازدا » قائلاً : « إن أول كمال هو الأفكار السديدة ، وثانيها الكلمات الطيبة وثالثها الأعمال الصالحة » .

في بدء رسالته ، يبدو أن « زارادشت » قد عاش حياة الناسك . وعلى شاكلة « يوحنا المعمدان » نزع إلى البرية ، وعاش على لاشيء ، اللهم إلا على الجبن والجنود ، ثم جاء الإغراء ، ومثلما قام الشيطان بالتهجير بالمسيح ، قامت الشيطانة « سيندارماد Spendarmad » بالتهجير بـ « زارادشت » ولم يتم اللقاء في البرية بل بين أشخاص عاديين قرر « زارادشت » أن يدرس عاداتهم : « لقد اتجه زاراثوسترا إلى العالم الذي يعيش فيه ، عالم الصداقة ، مستهدفاً أن يراقب تماماً ذلك الطريق المعبود للوجود التجسدي . ثم تقدمت الشيطانة - امرأة ذات جسد ذهبي ، ناهدة الصدر . لقد طلبت صحبته كما طلبت أن يخاطبها وأن يعاونها . » ولما كان على علم بأن مفاتها خداعة تماماً ، طالبها بأن تدبر ظهرها ، ولكنها ردت عليه قائلة : « يازاراثوسترا الامبتاسي (٣) ، حيثما نكن ، تكن النساء منا جميلات من

(٢) لقد قيل نفس الشيء عن « بوذا Buddha » الصغير عند ولادته .

الأمام ، قبيحات بصورة غييفة من الخلف ، فلا تطالبني بأن أدير ظهري . » ولكنه أصر ، وبعد أن عارضت للمرة الثالثة ، وافقت على أن تدير ظهرها ، عندئذ خرجت منها سلالة كريمة من الثعابين والضفادع البرية والسحالي وأم الأربع والأربعين والضفادع البحرية . على أن المحنة الحقيقية جاءت فيما بعد في صورة هجمات شيطانية عليه ، من بينها كان إيلاج رصاص مصهور في معدته ، ولكن لم يفلح شيء في زعزعة إيمانه في عدالة الإله الذي تمتع بصحبته ، أعني « أهورا مزدا » . وأخيراً ، كمكافأة له على تعبه الرواق ، أهده « أهورا مزدا » شخصياً بكتاب الحكمة السماوية الذي سمي فيما بعد باسم « أفستا Avesta » ، وكان هذا هو الإنجيل الذي كان يحلم به وهو صبي . وبذا صار للمبعوث الآن إنجيله .

وبرغم أن تبشيره قد لقي في بادئ الأمر أذناً صماء - لأن الفرس كان لديهم بالفعل آلهتهم وطقوسهم الطبيعية - إلا أن « زارادشت » قد بدأ بالتدريج في اجتذاب مهتدين ، وعندما قرر في النهاية أمير فارسي يدعى « فيشتاسب Vishtaspa » أو « هيستاسبس Hystaspes » أن يعتنق العقيدة الجديدة ، بدأت حركة تحول دينية قوية ، لأن هذا الأمير أعلن على الفور عن نيته في نشر العقيدة الزرادشتية في أرجاء مملكته ، ولكن خليفة قبيز Cambyses المنغصب ، وكان يعتقد في آله الماجين القديمي Old Magiangods ، سعى لاستئصال شأفة الديانة الزرادشتية ، ولكن باعلاء داريوس الأول Darius I العرش في سنة ٥٢١ ق . م . أعلنت العقيدة الزرادشتية ديانة رسمية للفرس . ويعتقد بعض المؤرخين أن الأمير « هيستاسبس » الذي كان أول من صادق « زارادشت » لم يكن إلا والد داريوس . وإذا صح هذا القول ، فإن هذا ينهض دليلاً على أن « زارادشت » قد ولد في أقدم تاريخ عزي إليه . وطبقاً لرواية ، تمت وفاة « زارادشت » ، التي كان سن المفروض أن تحدث في الثامنة والسبعين من عمره ، بصورة مسرحية مثلما تمت ولادته ، وإن كانت قد تمت بصورة أسرع ، وكان شعاع من نور يحيط به ثم صعد إلى السماء :

مثل هذه الرواية المقتضبة عن حياة « زارادشت » ، برغم ما حولها من قصص رائعة التصوير ، قد لاتشد القارئ الغربي ، كما لو كان فيها إما إقناع بصورة خاصة أو كان فيها سمو عقلي فريد في ذاته ، أما عن شخصية زارادشت فنحن لا نعلم عنها شيئاً ، وهي بلا شك : شخصية أكثر غموضاً من غموض شخصية كافة الزعماء الروحانيين الذين ستتاح الفرصة لدراسة حيواتهم . أما عن المعجزات المعزوة إليه ، أو كانت لها صلوات بمختلف وجوه حياته ،

فكثيراً ما تكون أقرب إلى الغرابة والسخرية . وأياً كان تأثيرها على أناس عصره وعلى من عبده فيما بعد ، فهي تستهدف كثيراً تعظيم شأنه في عيوننا بقدر ماتباعه بينه وبين المركز الأمامي الذي يحتله الرجال ذوو الرؤيا التي تفوق قدرة البشر . هذا هو أول انطباع لنا .

صحيح أنك إذا عرفت القدر اليسير عن إنسان ما ، أمكنك أن تصوره في أية صورة تريدها ، وأياً كان جهلنا بـ « زارادشت » ، فإننا يمكن أن نكون على يقين من أنه كان شخصاً مختلفاً تمام الاختلاف عن الحكيم العبقري ، الأستاذ الألماني الذي يمضى عطلته ، والذي تصوّره « نيتشه » . وفي الواقع ، فإن شخصية « زاراثوسترا » التي وردت في المسرحية الشعرية التي سبقت الإشارة إليها ، ليست إلا مجرد ركيزة توضع عليها أنماط فلسفة « نيتشه » عن يفوق البشر Superman لأنه مامن شخصية أخرى عظيمة من الشخصيات القديمة لم تكن خلواً تماماً من الزخارف التاريخية . وأملنا الوحيد ، برغم تواضعه ، في الوصول إلى فهم المغزى « زارادشت » هو أن نتأمله ونأخذ في اعتبارنا خلفية عصره . ونحن ندرك إدراكاً يشوبه الغموض بأن هناك تغييراً كبيراً في روح الحضارة التي كان ينتمى إليها . تغييراً يسير جنباً إلى جنب مع العمل التبشيري لمعلم عظيم . وفحص التعلم الحديث يتطلب أن نتعرف قدر المستطاع على عقلية الإنسان . وقد تكون النتيجة وهماً ، ولكن أى تاريخ فيما وراء فترة معينة ليس وهماً ؟ هذا الخط من البحث قد يبدو أنه جدير بأن يتبع .

كانت آلهة الفرس السابقة لعصر « زارادشت » تحمل شياً كبيراً لتلك الآلهة الواردة بالكتب المقدسة الهندية Vedas . وفي الواقع ، لقد كان كثيراً ما ينادى العلماء الهنود بأن الأفستا Avesta^(٤) تكاد تدين بكل تعاليمها الأساسية للفيدياس بما في ذلك اسمها . لقد كان البانثيون Pantheon أو مدفن عظماء الآلهة يضم إلهين عظيمين : ميثرى Mithra إله الشمس وأنيتا Anaita إله الأرض والخصوبة . وقد تأكدت أهمية عبادة الخصوبة أكثر من ذلك بعبادة هاووما Haoma الإله الثور ، الذي كان من المفروض أن دمه يهب الخلود لمن شربه ، لقد كان عشب « هاووما » ، كما سبق أن رأينا ، أول ما حلت به روح « زارادشت » في رحلتها البعيدة نحو مولده . ولما كانت الهاوونا موجودة بصورة خاصة في الجبال ، لذا كانت لها خصائص مخدرة ، وكانت عبادة الإله الثور تتمثل في شرب عصير النبات باعتباره ممانلاً للدم الذي يهب

(٤) وهي الكتب الزرادشتية المقدسة (المترجم)

الحياة . ومن المحتمل أن يكون إله الهند «سوماSoma» مثل الهاوونا . ونجد أيضاً بين هؤلاء الناس القدامى آثاراً واضحة لعبادة السلف : ديانة ترك اختفاؤها في الأزمنة المتحضرة فراغاً يملؤه مثل تلك الأمور البديلة المجردة مثل القومية ، العقيدة الوحيدة التي قدمها الغرب للشرق . لقد ذكرنا أن الكتب الزرادشتية المقدسة التي بقيت ، أعني «الأفستا» والنصوص البهلوية^(٥) ، تصعب قراءتها على الدارس الغربي ، ولا شك أن السبب في هذا هو أنه لا يكاد يكون هناك شيء في الأدب الغربي يمكن مقارنته بها . والواقع هو أن النصوص التي بقيت لا تعدو أن تكون أجزاء من مجموعة كبيرة جداً من الكتب المقدسة ، بعضها أريد عندما دمر «الإسكندر الأكبر» القصر الملكي في «برسبوليسPersepolis» ، في حين أن أجزاء أخرى فقدت في أثناء الفتوحات الإسلامية في القرن السابع الميلادي . وتحمل الأفستا ، بما حوته من قصص وأناشيد وصلوات ، شياً معيناً بكتاب العهد القديم ، وما يبدو أنه ينقصها هو : موضوع مستمر وهي خاصية من أهم الخصائص الجديرة بالاعتبار ، على الأقل فيما يتصل «بأسفار موسى الخمسة Pentateuch» ، وبرغم ذلك ، فإنه إذا ما تكشفت مرة التكرارات والغموض والمصطلحات غير العادية للكتابات الزرادشتية ، فإنه لا تلبث أن تبدأ رسالة عامة في الظهور ببطء ، وإذا بالقارئ الذي كان قد تقارب منها وقرر أنه قد أعياه أمرها ، إذا به يستسلم لسحرها . كما أن كلمة السحر لا تستخدم في غير موضعها الصحيح . والأدب النثري يؤثر على الخيال بقوة الرقية Incantation . والبحث عن المنطق هو البحث عن شيء واضح أنه لم يقصد أن يكون له وجود بالمرّة (أو على الأقل لا يتضح هذا في الترجمة) اللهم إلا في فقرات من الحكمة الشعرية ذات المغزى Epigrammatic Wisdom ، مثل تلك التي نراها مقترنة بالحكماء الصينيين . ومما يبعث على شدة الغرابة حقاً ، أن القارئ الغربي قد يجد نسبياً مزيداً من الرضا والقناعة في الشعر . والأناشيد الزرادشتية أو «الجاتاسGathas» بمحاوراتها الأخلاقية والميتافيزيقية أحياناً ، تحوى قدراً طيباً أكثر من الجوهر عما تحويه أناشيد الشمس لأختاتون ، والأناشيد الرائعة للـ «ريج - فيدا Rig-Veda» .

(٥) كتبت الأفستا باللغة الزندية Zend (ومن ثم تسمى زند - أفستا Zend-Avesta) أما النصوص فقد كتبت بهجة ذات أصل هندوسى اشتقت منه اللغة الفارسية الحديثة .

مضمون العقيدة :

أى انطباع عام نستخلصه من هذه المقالات المتنوعة عن الصلاح والعدالة ومن هذه التقارير عن اللقاءات مع إله النور ، وهذه المعلومات عن خالق العالم وعن تكاثر الأجناس البشرية وأخيراً هذه التعبيرات عن المشاعر الجياشة في الشعر المذهل ؟ إنه انطباع عن بهجة الحياة والطبيعة إيمان ليس له طابع مادي يقدر ماله من طابع حيوي ولكن يكتشفه إحساس بالرهبة والخوف من الشر وبمعنى آخر ، فإن عبادة الخصوبة القديمة مازالت تمارس ضغطها القوي الذي لا يمكن إنكاره ، مثلما استمرت عبادة « أوزيريس » تحتفظ بكيانها في مصر جنباً إلى جنب مع عبادة « رع » . وفي بلد زراعي ، كان هذا أمراً طبيعياً بلاشك . « تعسة هي الأرض التي تُركت أمدأ طويلاً غير مزروعة ولم يبذرنا زارع ، وهي في حاجة إلى فلاح صالح ، مثلها في ذلك مثل امرأة جميلة المحيا ظلت عانساً أمدأ طويلاً وهي في حاجة إلى زوج صالح . »^(٦) .

إن ما يبدو أن « زارادشت » قد فعله هو : تنقية عبادة الخصوبة من مظاهرها الخسنة ، ولقد حاول « مومى » عليه السلام ، بالمثل ، أن يوقف ميل بنى إسرائيل الفطري للاشتراك في الطقوس المغالى فيها . ومن الروايات الواردة بالكتاب المقدس من الممكن أن نستنتج (يرغم أن الاستدلال كان مثار نزاع حار) أن رفض « يهوه » السماح لمومى بدخول أرض الميعاد ربما كان مرده إلى فشله بصورة خاصة في آخر مرة ، في وقف هذه الفرائض المفسدة للأدب^(٧) . ويروى لنا أنه عند نفس عتبة دارهم الجديدة ، التي بمجرد رؤيتها لا بد وأن يدرك الفرد العادي أن « يهوه » كان الإله الحقيقي ، دخلت أعداد غفيرة من الرجال في علاقات غير شرعية مع نساء موآب Moab ، اللاتي نفترض أنهم طلبوا منهن التعاون في هذا الإجراء الذي لم يكن في حد ذاته إجراء لا أخلاقياً لطقس من طقوس الخصوبة . ولا شك أن « زارادشت » حاول أن يمنع أبناء وطنه من عبادة « الهاووما » لنفس السبب الذي جاهد « مومى » عليه السلام من

(٦) فيديداد Vendidad . فاراجارد ٣ . Faragard III

(٧) واضح أن الرفض كان لسبب إغفال واجب من الواجبات المقدسة انظر سفر التثنية Deuteronomy الأصحاح ٣٢ آية : ٥١ وفيما يلي نصها : لأنكما (يقصد موسى وهارون) خنتاني في وسط بنى إسرائيل عند ماء مريبة قادش في بركة صين إذ لم تقدساني في وسط بنى إسرائيل . (المترجم)

أجله ، وغالباً ما كان دون جدوى للحيلولة دون عبادة العجل الذهبي ، لا لشخصه ، أعنى أنه صورة منحوتة أو مصهورة ، ولكن لما يرمز إليه ، أعنى باعتباره ثوراً ، أوضح شعار للخصوبة ، ولنفس السبب ربما كان تأكيد « زارادشت » على شخصية « أهورامازدا » السامية مستمداً من اعتقاد كان يسلم به بالمثل كل من « إبراهيم » و « موسى » عليهما السلام احتراماً لـ « يوه »^(٨) ، أن مثل هذا السموق قد يجعله « متزهاً عن كل ماله علاقة بالجنس » لقد كان « أهورا مازدا » و « يوه » ، وظلا ، مذكرين فقط لأسباب لغوية . كانا يعيشان في مستوى مختلف عن مستوى آلهة وآلهات البانثيون القديم ، الذى كانت تغزوه بالمثل آلهة الحيوانات وأشياء الحيوانات ، القابل جنسها للتبديل والتغيير .

ولعل واحداً من أطرف الفقرات في الـ « فينديداد Vendidad » (الفصل الثانى) ، هو ذلك الجزء من الأستا الذى يشكل القانون الكونى للفرس المحدثين ، يحوى بياناً سلمه « أهورا مازدا » لـ « زارادشت » عن أول « إنسان مقدس » وكان اسمه « ييا Yima »^(٩) ، كان ييا الوسيم راعياً ، تحدث معه « أهورا مازدا » قبل أن يكشف عن نفسه لزارادشت ، وعندما دعا « أهورا مازدا » ييا لكي يكون مبشراً وحاملاً لعقيدته « رفض الأخير » بحجة تعليمه البدائى ، فرد « أهورا مازدا » على ذلك قائلاً : « مادمت لاترضى أن تكون مبشراً وحاملاً لعقيدتى ، إذن فدع عالمى يزداد ويتكاثر ، ودع عالمى يكبر ، وافق إذن على أن تُنعش وتُحكم وتشرف على عالمى » فوافق « ييا » ، ووعد بأنه طوال حكمه للعالم لن تكون هناك « ريح باردة ولا حارة ، ولا مرض ولا موت » وكان صادقاً في قَسَمه . وبعد مضي ثلثمائة شتاء كانت « القطعان وأسراب الغنم ، مع الناس والكلاب والطيور والنيران الحمراء المتوهجة » في وفرة عظيمة حتى لم يعد فى استطاعة الأرض أن تحملها جميعاً . وعندما وجه « أهورامازدا » نظر « ييا » إلى هذه المحنة ، شرع الملك الشاب فى الضغط على الأرض بجاتم ذهبى وثقيها بمنحجر (شعار منصبه) وبذلك ازداد حجمها بمقدار الثلث ، بصورة معجزة ، وتكررت هذه العملية كل ثلثمائة سنة ، فكبر حجم الأرض تبعاً لذلك فى كل مناسبة . ونحن نلاحظ هنا اهتماماً ، بل انشغال بال ، بالوفرة والزيادة الطبيعيتين سواء كان ذلك انعكاساً للتوسعات الأرضية لقبيلة من قبائل الرعاة وكادحى الأرض ، أو تصويراً ، فى لغة مغالى فيها ، لظروف

(٨) قارن ذلك بما كتبه بيوربر Buber فى كتاب « موسى Moses » ص ١٩٤ .

(٩) قارن ذلك بـ « ياما الهندوسى Hindu Yama » .

العالم قبل كارثة ما مماثلة لكارثة طوفان بابل .

ويعود الموضوع نفسه للظهور مرة أخرى في الروايتين الزرادشتيين عن الطوفان نفسه ، في أولاهما « ييا » الراعى يعود للظهور مرة أخرى في دور « نوح » أو « شاماش - نابشتم » . كان سبب الطوفان في هذه الحالة نتيجة ذوبان ثلوج جبل . يقول « أهورا مازدا » مخبراً « ييا » أن الشتاءات المكروهة على وشك أن تحل على عالم المادة مما سيجعل ندف الثلج تتساقط كثيفة على أعلى قمم الجبال . . . قبل ذلك الشتاء ، ستمتلئ البلاد بوفرة من كلاً المشية قبل أن تجتاحها المياه . ثم بعد ذوبان الثلج ، سيصبح يا « ييا » أى مكان يشاهد فيه آثار أقدام لخروف ، أعجوبة العالم .. وبناء عليه ، سمح « أهورا مازدا » لـ « ييا » أن يخطط لحديقة « طول كل جانب من جوانب مربعها كطول أرض سباق ، ويأقن إليها بنسل من الغنم والثيران والناس والكلاب والطيور ، كما يأقن بنيران حمراء متوهجة » . داخل هذا السياج أو الخليط (فارارا Varara) ، الذى من المحتمل أن يكون قد رفع إلى مستوى معين ، تصل تعليمات إلى « ييا » بأن يتولى تربية ورعاية الناس والحيوانات والنباتات بأسلوب معين بقصد التخلص من كل ما هو معيب ، فبالنسبة للناس أن لا يكون هناك أحد أحذب ولا أحد له كرش ، ولن يكون هناك من هو ضعيف جنسياً ولا من هو مجنون ولا من هو لثيم ولا كاذب ، ولا مؤذ ولا حقوق ، ولا واحد أسنانه متآكلة ، ولا أبرص ليحتجز ، ولا به بصمة واحدة من البصمات التى ختم بها « أنجرا مينيو Angra Mainyu » أجساد البشر . كل هذا حدث تبعاً لذلك ، والحادثة التى جردناها هنا مما بها من تكرار ، تنتهى بملاحظة أن الناس في « الفارا » ، التى أقامها « ييا » ، يحيون أسعد حياة ، ماداموا يتبعون في كل التفاصيل وصايا عقيدة « أهورا مازدا » كما فسرها « زاراتوسترا » . وعلى شاكلة كل فردوس دنيوى ، مع ذلك ، فإنه مقدر لها أن تواجه تدخلًا وتخطيماً من قوى الشر .

وبينما تعد القصة الأولى عن الطوفان ، ببساطة ، علة لبقاء الأجناس البشرية ، وتتيح فرصة لتحسن البشر ، نجد أن في القصة الثانية من الـ « بنداهيس »^(١٠) Bundahis ، تعطى فكرة عن أمور أكثر عمقاً . فهنا نجد أنه قد ورد بوضوح ذكر جوهر علم اللاهوت الزرادشتى الذى هو صراع على مستوى العالم بين قوى الخير والشر ، النور والظلمة ، « أهورامازدا »

(١٠) جزء متبق من الأستا .

« وأهريمان Ahriman » الشيطان الوحيد . وبدلاً من كون الطوفان قد بعث به الله كجزاء وعقاب ، كما جاء في كل من ملحمة « جيلجاميش » وفي « سفر التكوين » ، نجد أن الكارثة الزارادشتية قد خططتها بدقة قوى الظلمة للإطاحة بـ «أهورا مزدا» ، ويشكل صراع الرياح والماء فحسب خلفية لصراع ثنائي هائل بين «أهورا مزدا» وحلفائه من ناحية « وأهريمان » من ناحية أخرى ، ولم يكن إلا عن طريق ما وهب به « تيسار Tistar » إله النجوم من « قوة عشرة جياذ قوية وعشرة جمال قوية ، وعشرة ثيران قوية ، وعشرة جبال وعشرة أنهر » إلا أن دبرت قوى الخير أن تكون لها السيادة بالفعل .

ولو انتقلنا الآن إلى الأساطير الزارادشتية التي تتناول أصل الجنس البشري ، نلاحظ نفس هذا الصراع القائم في الشبيه الزارادشتي لآدم وحواء المسمين باسم « ماشيا Mashya » و« ماشيوي Mashyoi » أو « ماترو Matro » و« ماترويواو Matroyao » وقد نلاحظ ونحن نمرر الكرام أن الإنسان ، كما جاء في « سفر التكوين » كان السادس في ترتيب الخلق . وطبقاً لما جاء في « دادستان - سى - دينيك Dadistan-i-Dinik » أوجد «أهورا مزدا» جوهر الإنسان من النور ، ولكن هذا المخلوق ظل لمدة ثلاثة آلاف سنة ، لا يتكلم ولا يأكل ، وكان وجوده فقط لغرض التأمل في « صدق العقيدة الكاملة والصحيحة ، والرغبة في التمجيد الخالص للمخلوق » وكان الميلاد ، كما نعرفه ، نتيجة لتخطيط شرير من جانب « دائم خلف الوعود » ، ولكن لاعلم لنا كيف جرت هذه النكبة . إن كل مانعرفه هو أنه قد حل « موت ثقيل » بشخص « جايومارد Gayomard » الذي بوفاته نُقلت ، بمعاونة ملك من الملائكة ، الذرية التي ولد منها « ماشيا » و« ماشيوي » « أخ وأخت البشر » . والقصة تستكملها بعد ذلك « البونداهيس » ، فالأخ والأخت تسميا فيها « ماترو » و« ماترويواو » واتحدوا فيزيائياً ، وتلاصق مسطاهما وتلاحما حتى لم يعد واضحاً أيها الذكر وأيها الأنثى . .

أما عن هذا الفرد التوأم ، فقد أصدر «أهورا مزدا» تحذيراً رزيناً قال فيه : « أننا إنسان ، أننا سلالة نسب العالم » وعليه فقد « أوصاهما » باحترام قوانين عقيدته وأن يظلا نقيين في أفكارهما وكلامهما وأفعالهما ، وفوق كل شيء كان عليهما ألا يعبدا أى شيطان . ولفترة سار كل شيء على مايرام ، ونعما بمباهج الطبيعة ، وعبدا «أهورا مزدا» على أنه إله الخلق ، ثم قررت الشياطين أن تعمل « فذب الخلاف في عقولها وفسدت عقولها فساداً تاماً » وإلى درجة

كبيرة ، حتى أنها بدأ يعزوان الخلق لا إلى « أهورا مزدا » بل إلى الأرواح الشريرة ذاتها . ومن جراء هذا الشر حُكِم على نفسها بعد ذلك بأن تستقرا في الجحيم « حتى يوم البعث » ، وبالتدريج أثبتت شهواتها الجسدية وجودها . لقد حلبا معزة بيضاء الشعر واضعِينَ فيها تحت ضربتها وكانا يتلذذان من طعم لبنها ، وهما يعزوان ذلك إليها ولا يعزوان لذة الطعم إلى الخالق ، وبعد ذلك ذبحا شاة ، وباللهب على خشب شجر النبق *Loteplum* وشجر البقس *Boxtree* ، أشعلا النار وشويا الشاة . وفي هذه المناسبة ، لما صارا أكثر تفكراً في الآلهة ، رمياً بثلاثة أحفان من اللحم إلى النار كنعيب للآلهة ، وبثلاثة أحفان إلى السماء كنعيب للملائكة ، وفي الوقت نفسه خصص نسر نصيباً لنفسه . وبعد ذلك اكتسبا مهارة في نسج القماش وحياسة الملابس ، ثم حفرا حفرة في الأرض واستخرجا حديداً صهراة وصنعا فأساً لقطع الأخشاب ، بل أقاما كوخاً خشبياً .

وبازدياد المهارة دب النزاع ، فنشب أول شجار بينهما ، ولما كانا مرتبطين أحدهما بالآخر ، لذا كانت نزاعاتها عنيفة بصورة غير عادية . لقد أخذوا يصفعان أحدهما الآخر ويغندش كل منهما وجنتي الآخر ويندف كل منها شعر الآخر . كانت هذه فرصة الشياطين . لقد طالبا « ماشيا » و « ماشيوى » بأن يسلا نفسها تماماً إلى « أهريمان *Ahriman* » وبهذه الطريقة سيبدأ ، كما وعدوهما ، « شيطان الشر » عندهما .

ونتيجة لهذا الانصراف المستمر عن الإله ، مالبت أن صار الاثنان على وعى بالربغات الحيوانية بصورة لا يمكن احتمالها . لقد ظلت مثل هذه الغرائز راقدة لمدة خمسين سنة وصارت الآن مستبدة . ودخل الاثنان في اتحاد ، وبعد تسعة أشهر ولد توأمان ، ولكن الأبوين التهبهما على الفور ، وهى عملية ربما استمرا عليها لو لم يتدخل « أهورا مزدا » ، وهكذا ولد الإنسان في خطيئة وعاش بعد ذلك على معاناة مقدسة .

أما عن أن الرجل الأول والمرأة الأولى ربما كانا مخلوقاً واحداً أو أنها مرتبطان ارتباطاً وثيقاً

فهى فكرة ليست خاصة بالمذهب الزرادشتى وحده ، بل هى موجودة كما سنرى ، في الـ « ريج - فيدا » التى يُصوّر فيها « ياما *Yama* » و « يامى *Yami* » ابنا « فيفاسات *Vivasat* » على أنها أخ وأخت توأمان . وعلى شاكلة ماجاء في سفر التكوين ، حواء خلقها الله من ضلع آدم . وفي كتاب « الندوة *Symposium* » وضع « أفلاطون » على

لسان « أريستوفانيز Aristophanes » أسطورة تناول أصل البشر من مخلوق له رأسان انشطر فيما بعد إلى نصفين : من هذا الانقسام فسّر عاطفة الحب ، التي هي رغبة أى مخلوق في البحث عن المكمل الذى انفصل عنه . ولاشك أن هذا الوجه من الموضوع تافه ، ولكن ماهو أكثر أهمية هو حقيقة أن كل قصة ، باستثناء قصة « أريستوفانيز » (التي قصد بها أن تكون خيالية) ، تصف أصل الدافع الجنسي بأنه مقترن بالخطيئة ، أو بنوع من السقوط ، بل حتى مفهوم « زارادشت » كان مقترناً بالذنب : فالثنائي « بورو شاسبو » و « داكدوب » بدءاً خجلين عندما حالت الأرواح الشريرة بينهما وبين احتضانها لبعضهما البعض رغبة منها في إنجاب ابن لها . إذن ، فقد يكون من عدم الحكمة أن تفكر في السبب في أن مثل هذه الفكرة قد انتشرت انتشاراً واسعاً أو في الكيفية التي صارت بها عميقة التأصل . وسنعود لهذا الموضوع بعد دراسة الأفكار المتعمقة لحكماء الهنود الذين كان انشغالهم بالخلق والميلاد يحتل أولوية فوق كل اهتمامات أخرى .

الخير والشر :

إن من التفاهة أن نلجأ إلى تفسير للسبب في أن « أهورا مازدا » برغم سموه اسمياً ، لا بد وأن كان طوال كل الخلود موضوعاً لتحدى « أهريمان » . ولم يكن بالمذهب الزارادشتي أسطورة عن « إبليس Lucifer » ، برغم أن مايعادله هو الشيطان Satan ، لا بد وأنه أثر بكل تأكيد في الفكر المسيحي . ونحن نلاحظ أن الشيطان يصور بصورة أكثر تكراراً في الأسفار المتأخرة من العهد القديم ، في حين أنه في العهد الجديد هو شخصية معتمدة من شخصيات المسرحية . ولم يكن منافسو « يهوه » الأوائل مبعوثى الشيطان بل كانوا آلهة غيره فحسب وفي علم اللاهوت الزارادشتي نحاط علماً بأن « أهريمان » « قُضِل العمل الجائر » .

ونجد في « زاد - سبارام Zad-Sparam » رواية رمزية غامضة عن الخلاف المتأصل بين : « أهورا مازدا » و « أهريمان » ، ونحاط علماً في كلمات تذكرنا بسفر التكوين القديم أنه في بداية الزمن « كان النور فوق والظلمة تحت ، وبين هذين الاثنين فراغ مكشوف » وقد سكن « أهورا مازدا » مملكة النور كما سكن « أهريمان » مملكة الظلام . وفي الوقت الذى كان فيه « أهورا مازدا » على علم بوجود « أهريمان » وقدمه للصراع لم يكن « أهريمان » مع ذلك على

علم بمملكة النور التي فوق رأسه . وذات يوم ، في أثناء تسكعه في الظلام ، خرج «أهريمان» مصادفة من المناطق السفلية وإذا به «يرى شعاعاً من النور» ، ونظراً لاختلاف طبيعة ذلك الشعاع في اعتقاده ، «جاهد أهريمان للوصول إليه» ، حتى يمكن أيضاً أن يدخل في نطاق نفوذه المطلق : عند ذلك اقترب «أهورامازدا» من الحدود . وماحدث بعد ذلك لم يكن صراعاً كذلك الذي حدث بين «إله النجوم الهركيولي The Herculean Tistar» وبين قوى الظلمة ، ولكن طرد «أهريمان» ، «بكلمات طاهرة» (قارن ذلك بأول لقاء لـ «زارادشت» مع «أهورامازدا») . بها بطل «سحره . ويصوّر «أهورامازدا» مرة أخرى في «الفينديداد» وهو يفسر لزارادشت كيف أن شرور ومساوي الحياة قد تأصلت . وهو يبدأ بالإشارة إلى أنه قد جعل كل بلد «حتى ولو لم يكن به أية مفاتن تذكر عزيزاً على أهله ، وإلا لاجتاح عالم الرجال بأسره منذ أمد طويل أرض الآريين Airyano Vaejo أو موطن الجنس الذي تناسل منه كل من الفرس والهنود^(١١) . وبعد خلق أجمل البلدان هذه ، شرع «أنجرا مينيو Angra Mainyu» (وهو اسم آخر لـ «أهريمان») يناقض ماخلق ، بخلق كل المظاهر المغايرة ، وتطول القائمة لتضمن ستة عشر بلداً أو منطقة في كل منها خلق «أنجرا مينيو» شروراً مثل : الثعابين والنمل والجراد والكبرياء والدموع والسحر والدفن^(١٢) ، والكفر والظلم والولادة الشاذة وشدّة الحرارة ، وفوق كل شيء الشتاء - وقد وُصف الأخير في كل ذكر له على أنه «الشیطان نفسه» (عمل الشيطان Daevas) .

مثل هذه القصص الرمزية واضح أنها ابتكرت لتقنع عقول البسطاء من الناس ، ومع ذلك فلسنا في حاجة إلى الإقلال من شأنها . وقد لجأت كل الديانات إلى مثل هذه القصص الرمزية التي كان لها أعظم ميزة في الحفاظ على العقيدة ثابتة . والعقائد الميتافيزيقية كعقيدة أرسطو ، لم يقصد بها الاستيعاب الشعبي . وتاماً مثلما كانت «العقيدة» القومية لمصر راسخة في أذهان كل من الصغار وصغار العقول عن طريق قصص رمزية للفرعون الميت ومركبه الذهبي ، أو مغامرات «أوزوريس» ، فكذلك كان إثبات عقيدة زرادشت لأبسط فلاح أو

(١١) لاحظ هيرودوت أن الفرس كانوا ينظرون إلى الشعوب على أنها دونهم شأنًا ، نظراً لبعدها عن فارس .

(١٢) وصف على أنه «خطيئة لا فدية لها The sin for which there is no atonement» ، ويرفض الفرس المحدثون رفضاً باتاً أن يدفنوا موتاهم ، إذ يطرح الجسد الميت على ما يطلق عليه اسم «برج الصمت Tower of Silence» لتأكل الطير منه .

بدوى (وكانت إيران دائماً مستقراً للقبائل والعشائر) عن طريق قصص كفاح الغيلان وأذى الشيطان : عبارات يمكن أن يدخل تعليمها في التداخل الطبيعي لخبرة كل يوم . وقد يكون هناك الكثير الذى يقال عن وجهة النظر المتنادية بأن الحقائق اللاهوتية ، نظراً لأن بها ميلاً فطرياً لأن تتحول إلى تجريدات بعيدة ، من الأفضل أن تترجم في صورة قصة رمزية عن أن تترجم في أى مجال آخر . والتعبير عنها بالمره هو تعبير عنها كأسطورة ، والأسطورة بمعنى آخر ، ليست عقيدة باطلة ، بل بالأحرى طريقها الخاص لتصبح صحيحة^(١٣) .

ولقد أكدنا في الحديث عن عقيدة «أخناتون» ضرورة أن تكون لكل عقيدة ، كمنتم لعلم لاهوتها ، نظام أخلاقي واضح تمام الوضوح ، ويمكن أن تعلم الناس في مصطلحات عامة : ما هو خير وما هو شر ، ولكن لو أنك التزمت بولائهم لوجب عليك أن توضح لهم بصورة مطلقة ما هو صواب وما هو خطأ . وترى معظم العقائد أن من الضروري إخفاء هذه الحكم الأخلاقية في عبارات هي النواهي ، وكان الأمر كذلك في بابل . ولو رجعنا إلى الوصايا العشر العبرية لوجدنا أن ثمانية من بنودها من النواهي والتعاليم الزرادشتية ، برغم ما تضمنته من النواهي والمتناقضات في لاهوتيتها ، إلا أنها في مجموعها إيجابية في وصاياها . والمنهج الأخلاقي يمكن إيجازه بصورة أكثر وضوحاً في «زاد - سبارام» ، وهو أحد النصوص البهلوية ، ويتألف من قسمين ، قسم يتناول «الميل والتزعات» في حين يتناول القسم الآخر «التحذيرات والعظات» . والميل والتزعات الخمس التي توصف بأنها تسترعى اهتمام الكهنة بصورة خاصة ، تحدد قواعد السلوك الشعائري والسلوك الصحيح في العمل ، أما عن التحذيرات والعظات فمنها عشر يمكن أن يطبقها الجميع ، وأولها الحفاظ على ما يسمى بحسن السمعة حتى يمكن أن تفوز بالاحترام ليس فقط لنفسك بل أيضاً لأساتذتك أو من يربعك ، وثانيها هو أن تتجنب ، لنفس الأسباب ، اكتساب أى عنصر من عناصر سوء السمعة ، وثالثها ، هو ألا تضرب أستاذك أو تضايقه بتكرار ماهاك عنه ، ورابعها أن تتقبل أحسن تعليقات أستاذك في خضوع ، كما لو كانت قرصاً لا على أنها هدية^(١٤) . وخامسها ، هو أن تلاحظ أن قانون عقاب المسيء ومكافأة الصالح مراعى فيه صالح التقدم ، وسادسها ، هو أن

(١٣) قارن ذلك بما كتبه شيلنج Schelling ليست الأسطورة بقائمة على فكرة، كما يفترض الأطفال الذين يربون تربية غير طبيعية، ولكنها هي نفسها نوع من التفكير يعطى مفهوماً عن العالم ولكنه يعطيه في نتائج للأحداث والأفعال والمعاناة .
(١٤) هناك حكم معينة من هذه الحكم غامضة ، ولقد حاولنا أن نعرض ما نعتقد أنه المعنى الأساسى لها .

تحرص على أن تكون دارك كعبة لكل الأشخاص الصالحين المحيين للأنام ، وسابعها ، هو أن تعترف علانية بالخطايا التي ارتكبتها ، إذ بتخلصك مما هو شريئى على عقلك صافياً ، وثامنها ، وتشبه سابقتها ، وهى أن تتجنب كل الظروف التى تجعلك تتردى فى الخطايا ، وتاسعها ، هى أن تعمل أقصى مايمكن عمله لنشر العقيدة الحق ، وأن تساعد على استردادها لنفوذها لو تعرضت لنكسات ، وعاشرها وآخرها ، هو أن تقدم الاحترام اللائق لكافة أفراد الهيئة الكهنوتية .

من هذه القائمة التى تتناول التحذيرات والعظات ، من السهل أن نلاحظ م تتكون واجبات الفرد جميعها ، وتمثل فى أن يكون ورعاً نقياً ، مطيعاً لكل من معلمه وكاهنه وأن يكون قدوة للجميع . كما أنه لايقبل عن ذلك واجب ، واجب الدعوة إلى الإنجيل^(١٥) . وفى رواية عن يوم البعث وردت فى الـ « بندهيس » : يُحذّر المؤمن بأن من واجبه الخاص أن يراعى أن أصدقاءه الضالين يجب أن تتاح لهم كل فرصة للهداية ، فلو حدث مثلاً أن شخصاً شريراً شكاً يوم الحساب من أن صديقه الصالح « لم يدلّه على الأعمال الصالحة التى مارسها هو نفسه » . فستلقى الصديق الصالح ما يستحقه من عقاب ، وفضلاً عن هذا ، فإنه على الرغم من أنه يوم الآخرة « سيصبح الشرير واضحاً كوضوح خروف أبيض (هكذا) وسط خراف سود » . فلن يستطيع الصالح أن ينجو من الحزن . وتستمر الرواية فى سردها : « أنهم يتألون ، كل من أفعاله الذاتية ، ويكون : الصالح على الشرير والشرير على نفسه » ، لأنه برغم أن الأب قد يكون صالحاً فقد يكون الابن طالحاً وما إلى ذلك ، كما أن تجربة الجحيم ليست شيئاً يستهان به ، لأن الخوف من غالبية الأشياء الأخرى أكثر من الشيء نفسه ، ولكن الجحيم شيء أسوأ من الخوف منه ، ويقال إنه عند البعث كل من اعتبروا صالحين سيكون لديهم إحساس السير دوماً فى لبن دافئ ، فى حين أن الأشرار سيكون لديهم إحساس السير فى معدن مصهور .

مثل هذا الورع التام يتضمن العبارة المنظمة للإله طبقاً للطقوس المقدسة ، وبمضى القرون صارت شعائر العقيدة الزرادشتية البسيطة معقدة تماماً كما صار توحيدها السامى متضمناً

(١٥) ومع ذلك فإنه من الغريب أن الفرس المحدثين Modern Parsees لا يقبلون أى مهتدين إلى عقيدتهم ، ولذلك فهم لا يهدون الناس لعقيدتهم .

مغريات على الشرك . والجدير بأن يُعبد وحده إله ، لأنه قد وُهب كل كمال . وفي الوقت المناسب تصبح هذه الحضارة الحميدة منفصلة وتلقى احتراماً خاصاً . وإلا له ليس له مكان ، ولذلك فهو في كل مكان ، وموجود في كل شيء وكل شيء ينسب عن وجود الإله ولذلك يصبح إلهاً . ومن ثم ، يُفسح التوحيد الأصلي المجال لشرك عنيف ، ويعود الشيطان Daevas بعد طرده في صورة أرواح شريرة Fravashis .

أما عن أن هدف زرادشت الرئيسي كان بالأحرى تنقية العقيدة التقليدية لأبناء وطنه لا الإطاحة بها ، فتشير إليه عدة أصول ، فقد كان « مئرى » إله الشمس ، وهو أبعد من أن يطرد ، يُعبد على أنه نار سماوية ، كما كان يُمتدح في معظم الأناشيد الزرادشتية . و « هاووما » الثور ربما أقصى عن الباشيون ولكن النبات الذي تُعبد فيه قوته يلعب دوره في خلق النبي^(١٦) . ولم يقم الأتباع الأولون للعقيدة الجديدة ببناء معابد أو إقامة تماثيل ، ولكنهم أقاموا هياكل كانت توقد فيها النيران تكريماً لـ « أهورامازدا » . والنار ، التي كثيراً ما يشار إليها في الأدب الزرادشتي ما لبثت أن عُبدت على أنها إله ، كما حدث للشمس نفسها ، حتى كادت كل هذه الآلهة أن « تختل مكانة أهورامازدا^(١٧) » . وقد صارت عادة التمسك بنار دائمة في البيت جزءاً من المحافظة اليومية على الشعائر الدينية عند الإنسان : لأن المدفأة كانت مقدسة بصورة خاصة في عقيدة مجدّت الحياة اليومية ، وكان قوس قزح ، ذلك البديل للشمس ينظر إليه الزرادشتيون ، عرضاً ، بنفس الطريقة التي كان ينظر إليه بها إلى حد كبير في سفر التكوين ، على أنه « إشارة علوية من كائنات روحية إلى كائنات أرضية » .

وتامماً مثلما لم يكن مسموحاً لأتباع زرادشت بأن تكون لهم معابد ، فكذلك كان محظوراً عليهم أن تكون لهم أصنام . ولقد مارست عبادة الأصنام والاعتقاد في الشياطين شيئاً من النفوذ على عامة الشعب ويمكن أن نميزه من العقيدة المازدياسانية Mazdayasnian المحكمة التي لها وجود في الياسنا Yasna (قداس الكهنة الزرادشتيين) . وهنا نجد عبارة طويلة عن الإقلاع عن شيء وانجهاها بصورة خاصة إلى التخلص من نفوذ الشياطين : « من بعيد ، من بعيد ، أنا أنكر الشياطين وكل من تملكهم : العرافين ، وكل من يصدقون أساليبهم وكل

(١٦) كان العصير يشرب أيضاً كشعيرة دينية حتى بعد عهد زرادشت .

(١٧) ومع ذلك فليس صحيحاً أن يوصف الفرس المحدثون بأنهم عبدة « النار » ، فإشعال النيران ليس إلا مجرد طقس

من الطقوس الدينية .

كائن حي موجود ينجح نهجهم . إنني أنكر أساليهم ، كما أنكر كلماتهم وأفعالهم ، وذريتهم التي تفشى خطيئتهم ، إنني أنكر رعايتهم كما أنكر رئاستهم » . إن مثل هذا التبرؤ من جانب أعداء « أجلّ وأحسن وأجمل عقيدة موجودة » يمتد مداه عن طريق من يرددونه ، ولكن هدفه واضح ، خاصة إذا كان ترديده على لسان كاهن من الكهنة . ويقال أحياناً بأن « زارادشت » في توكيد سمو « أهورامازدا » ، كان يقصد إنكار حقيقة الشياطين . وأياً كان ما يؤمن به هو شخصياً ، فواضح أن أتباعه كانوا يأبون التخلي عن مثل هذه الأفكار العزيزة . وتقدم النصوص الهلوية القوي المجسدة للشر في وجه من وجوه حياة « زارادشت » ، كما تفعل مع الملائكة الطيبين الموالين له .

تطوير العقيدة :

إن فكرة ما عن خاصية العقيدة التي بشر بها « زارادشت » يمكن الوصول إليها إذا أخذنا في اعتبارنا صروف تاريخها . وستنتشر أية ديانة أياً كانت ، وفي الواقع أية عقيدة سياسية ، لفترة ، لو كان فرضها بقرار حاكم صاحب سلطة . ومن هذه الوجهة ، يلاحظ أن مرسوم « داريوس الأول » يشابه المرسوم الذي أصدره « أخناتون » . صارت الديانة قانوناً ، وصار الإلحاد مساوياً للخيانة . وإن المرء ليشبهه في أن عقيدة « زارادشت » كما بشر بها في الأصل ، قد فرضت ضغوطاً كثيرة جداً وفجائية جداً على شعب لم يكن قد تعلم بعد التعليم الذي يصل به إلى مستوى الوحدانية الخالصة^(١٨) . لقد عادت الآلهة تسعى مرة أخرى ، وكانت الشياطين بالفعل هناك . وبالتدريج استرد الكهنة السابقون للعقيدة الزارادشتية ، كهنة ماجي Magi الذين أقصوا من اللحظة إقصاء عنيفاً كما حدث لكهنة آمون ، استردوا نفوذهم . أما « مثرى » ، فكما سبق أن رأينا ، ازداد بهاؤه ، وفي الواقع لقد صارت عبارة « مثرى » في الوقت المناسب ، عبارة شعبية جداً بين الفرق العسكرية والرومانية الغازية حتى انتشرت في أقطار دون مستوى فارس ، من جراء بعدها عن فارس ، كبريطانيا . وبالرغم مما حاوله ملوك الدولة الساسانية في الفرس (٢٢٦ - ٦١٥ م .) لإرجاع العقيدة الزارادشتية لتكون دين الدولة ، إلا أن الدافع لهذه العقيدة التي كانت يوماً مانقية ، صار منعماً ، وقد استمرت مجموعات صغيرة في التمسك بالعبارة القديمة ، ولكن اليوم ، باستثناء مجموعة ضئيلة

(١٨) لم يكن هناك تطوير لاحق للاهوتية العقيدة الزارادشتية .

من الأنباع في فارس ، انقرضت العقيدة الزرادشتية كعقيدة في البلد الذي نشأت فيه ؛ وهي مع ذلك باقية كعقيدة للسكان الفرس التابعين لإشراف بومباي ؛ وقد بذل هؤلاء القوم جهودهم للحفاظ على العقيدة خالصة ، وقد يُعطى تنورهم الراهن فكرة عن تأثير شخصية مؤسس المذهب على معاصريه (١٩) .

على أن العقيدة الزرادشتية قد تلقت ضربة قاضية على يد الإسلام ، وتخرج العقيدة من جهادها عقيدة ، أقل صموداً للحرب وأضعف دعاية لها ، ومع ذلك ، فلعله من الخطأ افتراض أن عقيدة « زرادشت » لم تترك آثارا باقية سواء في الفرس أو في أى مكان آخر . وقد سبق أن وجهنا الأنظار إلى إمكان تأثير الزرادشتية فيما يتصل بالروح الشريرة المجمدة على العهد القديم . وبالمثل ، فربما كان المفهوم الزرادشتي عن الحياة بعد الموت له تأثير كبير على نفس الانجاء ، لأننا نجد القليل أو لا شيء ، من هذه الفكرة في الجزء المتقدم من الكتاب المقدس . والأفكار الخاصة بالخلق في سبعة أيام والفردوس الأرضي ، وحرمان الإنسان مما كان فيه من نعم ، وكارثة « ما قبل التاريخ » التي هددت بقاء الجنس البشرى ، معروفة لأكثر العقائد عن اليهودية والمسيحية والزرادشتية ، بالرغم مما نجده في الأخيرة من بعض تعديلات طريفة ومبتكرة . وإذا لم تكن هناك أية علة لافتراض أن العادات الدينية الزرادشتية أثرت تأثيراً مباشراً على تلك العادات الدينية عند العبرانيين ، فإنه يمكننا أن نفترض ، ونحن على حق ، أن مثل هذه العادات كانت من بين تلك العادات التي أمر العبرانيون ، وكانوا يميلون دائماً إلى المداعبات الدينية (٢٠) ، ألا يفعلوا شيئاً حيالها . وفي الواقع ، لو لم تكن في الفقرة التالية من سفر « حزقيال » إشارة إلى ممارسة أتباع زرادشت « لعبادة النار » ، لكان من العسير إدراك فكرة الرؤيا التي وُصفت وصفاً دقيقاً : وأنا جالس في بيتي . . أن يد السيد الرب وقعت على هناك ، فنظرت وإذا شَيْءٌ كمنظر نار من منظر حَقْوِيهِ إلى تحت نار ، ومن حَقْوِيهِ إلى فوق كمنظر لمعان كسبه النحاس اللامع ومدَّ شبه يد وأخذني بناصية رأسي . ورفعتي روح بين الأرض والسماء وأتى بي في رؤى الله إلى أورشليم ، إلى مدخل الباب الداخلى المتجه نحو

(١٩) خلال العشر سنوات الأخيرة ، ظهرت عقيدة مازديا سانية جديدة في بومباي نادت بها مليونيرة أمريكية ، ويبدو أن المؤمنين بها يستفرون في تمرينات تنفس خاصة ، كما يستفرون أيضاً في الطهى .

(٢٠) حتى في افتراض متأخر ، كافتراض « يسوع » عن الرئاسة ، كان لابد من سؤال بنى اسرائيل ليقرروا ما إذا كانوا يرغبون في عبادة « يوه » أو غيره من الآلهة .

الشمال^(٢١). . . « فجاء لى إلى داربيت الرب الداخلية وإذا عند باب هيكل الرب ، بين الرواق والمذبح نحو خمسة وعشرين رجلا ، ظهورهم نحو هيكل الرب ووجههم نحو الشرق وهم ساجدون للشمس نحو الشرق ، وقال لى : رأيت يا ابن آدم ، أقليل لبيت يهوذا عمل الرجاسات التى عملوها هنا^(٢٢). . . ولو عاش « زارادشت » حتى نهاية القرن السابع ق . م . لكان فى إمكاننا أن نتصور تماماً أن الممارسة الحماسية لعقيدته فى الأقطار المتاخمة للفرس ، مثل بلاد الرافدين ، ربما كانت مألوفة فى زمن حزقيال (حوالى سنة ٥٨٠ ق . م .)

صورة يمكن تصديقها :

لتقدير الطبيعة الكاملة لعقيدة زارادشت بقصد مقارنتها بغيرها من العقائد القليلة التى حققت على الأقل نجاحاً بين الناس يمكن أن يوضع موضع المقارنة ، يتطلب الأمر منا دراسة طويلة لما بقى من الكتب المقدسة ومعرفة خلفية تأليفها . وقد قدمنا فى هذا الفصل ما يزيد قليلاً على وصف مختصر لأساسيات العقيدة . وحتى هذا ، فإن الانطباع الذى بدأنا به يمكن أن يكون قد مر تماماً بقدر من التعديل . وتبدو صورة بعيدة عن سائر الربة فى مجموعها وهى تشق طريقها خلال الظلال ، وتتداعى العناصر الغريبة الشكل وتصبح غير ضرورية وتافهة . وكانت العقيدة التى يُبشِّرُها فى حماس ، وكانت تمارس فى نشاط لفترة ، ثم تركت لتتردى إلى إهمال نسى ، كانت عقيدة فرد لا بد وأنه قد أوفى بكل تأكيد خبرة مماثلة لخبرة الأنبياء . ونظرية القرن التاسع عشر عن أهمية الفرد *The Theory of the importance of the individual* التى لخصها « أمرسون Emerson » ببراعة فى قوله إن « التاريخ هو الظلال الممتدة لعظماء الرجال » ، قد يكون مبالغاً فيها ، ولكن هناك نقطة بعدها لا يمكن إغفالها دون حدوث خطأ مضاد ، وإن من ينكرون احتمال ما قد أطلق عليه لسوء الحظ « خبرة دينية » (كما لو كان فى الإمكان التسليم بعقيدة دينية دون اختبارها) ليسوا فى حاجة إلى افتراض أن ما لم يحدث لهم على الإطلاق لا يمكن أن يحدث لأناس غيرهم فى أى ظرف من الظروف . وفى أصل عبادة إله النور نحس بواحد من أولئك الزعماء العظام الروحانيين ، سبق أن تحدثنا عنه : سيد التبسيط ، مثل كل الزعماء ، الذى صورَّ النضال فى نفس الفرد على أنه يعكس فى صورة

(٢١) . حزقيال ، الأصحاح الثامن : ١ - ٤ (المترجم) .

(٢٢) . حزقيال ، الأصحاح الثامن : ٢٦ ، ١٧ (المترجم) .

مصفرة in paro نضالاً كونياً عظيماً بين الإله والشيطان ، الذى كان أساساً محباً للطبيعة لا بالمعنى التمثيلى السطحي الذى يروجه الرومانيكيون ، بل بمعنى أعمق يرى فى القرائن الأساسية للجسم شيئاً مقدساً ، مادام أن الله قد غرسها فيه واستحالت إلى شرف فقط ، لأن قوى الظلام تسمى إلى امتلاك ما يتمى إلى عالم النور : الذين أحسوا ، نتيجة لذلك ، بركة خاصة تجاه الصغار والمحبين وحديثى الولادة^(٢٣) ، ولا يحسون بذلك على الإطلاق بالنسبة لخلق الحيوان^(٢٤) » الذين رأوا فى الأسرة أئمن ضمان لوحدة المجتمع ، والذين أدركوا استحالة وحدة الأسرة بدون احترام آلهة العائلة واحترام أرواح الأجداد « فرافاشيس Fravashis » والذين صوروا بوضوح زماناً برغم بعده بثلاثة آلاف سنة ، ونتيجة لعمل أنبياء آخرين ، عندما كان الواجب يقتضى تحطيم قوى الشر تماماً . وكان من واجب الجنس البشرى أن يسترد الفردوس القديم . ويبدو أن قلة من الناس وقلة من الزعماء الدينيين ، قد تخلصوا تماماً مما هو ضار بالصحة .

وأما عن المتصوفين المسيحيين فلربما لم يستطع أحد فيما عدا القديس فرانسيس St. Francis وتوماس تراهيرن Thomas Traherne أن يدانى « زارادشت » فى تكريمه للخلق : إن من يتلو مدح القداصة . فى كمال العقيدة ، وبقلب ورع يمتدحنى أنا « أهورامازدا » فهو يمتدح الماء ، ويمتدح الماشية ، ويمتدح النباتات ويمتدح كل الأشياء الطيبة التى صنعها « مازدا » ، كل الأشياء التى تناسلت من العناصر الطيبة (شقافة ياست Yast) . وأخيراً نكتشف فى عقيدة زارادشت عنصراً حُجب نوره ، ولكن لم يخلفه على الإطلاق توكيد على الشهرة الشخصية وطاعة المسئولين ، أعنى الاهتمام بصورة خاصة بالخبيرة الداخلية الواضحة قبل كل شىء فى الأولوية المعطاة « للأفكار الطيبة » و « التزعة الصادقة »^(٢٥) : فلا يوجد دليل أكثر توكيداً على التنور الروحى ، كما أن هذا الانشغال بالحالة الداخلية للقداصة ليس مجرد إغراء بالاطمئنان . وتتطلب العقيدة الحلق بذل جهد مستمر سواء

(٢٣) من واجب المؤمن أن يهتم بأمر كل حبلٍ سواء كانت تمشى على قدمين : أو على أربع ، سواء كانت امرأة أم كلبة (فينديداد) .

(٢٤) كان هذا صحيحاً بصورة خاصة بالنسبة للماشية والكلاب ، قارن ذلك بما جاء فى فينديداد : من يقتل الكلب يقتل نفسه شخصياً لتسع أجيال .

(٢٥) انظر بصورة خاصة « الصلاة للهداية Prayer for Guidance » إذ جاء فيه ما يلى : « أخيراً كيف يمكن أن تأتى إلينا بتزعة صادقة » .

في صورة النظام الذاتي وفي صورة العمل الاجتماعي وفوق كل شيء لا بد أن تكون هناك نهاية
 للتعصب الديني ، وهو أوضح خطر تتعرض له أية عقيدة رسمية ، وهناك فقرات قليلة في
 الكتب المقدسة لعقائد العالم كانت في آن واحد مبجلة جداً ومستوحاة كهذه من النشيد
 المعروف باسم « فارفارين ياست Farvardin Yast » : نحن نعبد هذه الأرض ، نعبد تلك
 السموات نعبد تلك الأشياء الطيبة الكائنة بين الأرض والسموات والتي هي جديرة بالتحية
 والصلاة من أجلها ، والتي يجب أن يعيدها الإنسان المؤمن . نحن نعبد أرواح الحيوانات
 المفترسة والمستأنسة ، نعبد أرواح الأناس القديسين والنسوة القديسات ، من ولدوا في أي
 زمن ، من هم ضمايرهم في نضال ، أو ستناضل ، أو ناضلت من أجل الخير .